صورة البدو فى الكتابات الاستشراقية

جوستاف لوبون أنموذجًا

عمر مصطفى لطف[1]

تعتمد الكتابات التاريخية الحديثة عند الحديث عن البدو وتاريخهم، على كتابات الرحالة والمستشرقين الغربيين. وللأسف لا توجد – تقريبا – رحلات قام بها رحالة عرب إلى الصحراء المنتشرة فى العالم العربى[2]، نستطيع أن نستمد منها وصفا للبدو وعاداتهم وتقاليدهم، وفى الوقت ذاته نستطيع أن نقارنها بكتابات الرحالة والمستشرقين عن البدو، للتعرف على المغالطات التى دسها هؤلاء عنهم، الذين نعتبرهم أحد الجماعات المهمشة فى تاريخ العرب وحضارته.

ويرى بعض المؤرخين العرب أن المستشرقين كتبوا مؤلفات تتضمن انطباعات ومشاهدات أبرزت الجانب السيئ فقط للبدو، وأطلقوا أحكام بعضها شديدة القسوة، وأن كتبهم كانت بغرض استعمارى. وربما نستطيع القول إن هؤلاء المستشرقين لم يستطيعوا فهم الظروف شديدة القسوة التى عاش فيها البدو، والحياة الجافة والبعيدة عن المدنية والحضارة، وعدم وجود فرصة أو إمكانية لديهم لتأمين سُبل عيشهم اليومى من طعام وشراب بدون انتظار رحمة السماء، الأمر الذى جعلهم يكذبون وينهبون، فهى مجرد انطباعات ومشاهدات وتسجيل للنتائج بدون مناقشة أو دراسة الأسباب التى أدت إليها. وأيضا اختلاف الثقافات والنظرية السطحية البسيطة فى مراقبة حياة الآخر ورؤية طريقة حياته التى تقيم هذا الآخر من وجهة نظرها واعتمادا على قيمها وأسلوب حياتها ومستواها الحضارى.

---

(١) باحث أكاديمى – معهد البحوث والدراسات التربوية – جامعة القاهرة.

(٢) نجد وصفا دقيقا وتحليلا سيكولوجيا وأنثروبولوجيا من قِبل مؤسس علم الاجتماع العربى ابن خلدون، حيث درس عادات وتقاليد البدو فى عصره (القرن الثامن الهجرى) وحللها، انظر بالتفصيل بحث «مفهوم البداوة عند ابن خلدون» لمصطفى لبيب عبد الغنى، مؤتمر «البدو فى الوطن العربى»، المجلس الأعلى للثقافة والجمعية المصرية للدراسات التاريخية، إبريل ٢٠١٠م. ونجد هناك أيضا مؤرخنا الكبير تقى الدين المقريزى يفرد كتابا خاصا بالعربان (البدو)، وهو كتاب «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب»، والذى يعد حجة فى موضوع استيطان القبائل من العرب بمصر، من دخول عمرو بن العاص وحتى حياة المقريزى (العصر المملوكى).

وإذا تحدثنا عن صورة البدو فى الكتابات الاستشراقية فى القرن التاسع عشر الميلادى، نجد لدينا عدة كتب ورحلات كتبها مستشرقون ورحالة عظام. هناك السويسرى جون لويس بوركهارت، الذى قام برحلة إلى شبه الجزيرة العربية فى عام (١٨١٤م)، متنقلا بين المدينة المنورة والطائف وجدة وينبع، وقابل محمد على باشا فى الطائف، حين كانت جيوشه تحارب الدولة السعودية الأولى.

وقد دوّن بوركهارت – بشكل دقيق– ملاحظاته ومشاهداته فى عدة كتب، وما يهمنا هنا كتابه «ملاحظات عن البدو والوهابيين»، وهو من جزأين: أحدهما دراسة وصفية تحليلية لعادات القبائل البدوية فى شبه الجزيرة العربية وأعرافها وتقاليدها، والجزء الثانى يسرد فيه تاريخ الوهابيين، مستخدما مصادر مكتوبة وشفوية للتأريخ. وقد أطلق بوركهارت فى كتابه العنان لمشاعره الصادقة بلغة سليمة سمحت لبعض المصطلحات والتراكيب العربية بالتوغل فيها والنفاذ إليها. ولكننا نلاحظ هنا اقتصاره على بدو بلاد الحجاز فقط، فى الأماكن التى زارها[1].

وهناك هارى سينت فيلبى، والذى قام بمغامرة ورحلة خطرة لعبور الربُع الخالى، وذلك فى الثلث الأول من القرن العشرين، ووصف البدو الذين قابلهم فى ثنايا كتابه ورحلته المشوقة هذه، ويقتصر فيلبى فى كتابه على البدو الذين صادفهم فى الربُع الخالى فقط[2].

وهنا نأتى لأهم المستشرقين فى القرن (١٩م)، وهو الفرنسى جوستاف لوبون، والذى لم يؤرخ ويكتب معتمدا على المصادر المكتوبة، ولكنه قام برحلات لإضفاء المزيد من الواقعية والصدق على كتاباته المختلفة.

ولد جوستاف لوبون فى بلدة نوجان لى روتر بفرنسا عام (١٨٤١م)، وبرغم دراسته للطب فى باريس وحصوله على شهادة الدكتوراه عام (١٨٦٦م)، فإنه تميز منذ شبابه بالاشتغال بالبحث العلمى، وكان شغوفا بالسفر والترحال، فقام برحلة طويلة جاب خلالها أنحاء أوربا، ثم زار شمالى إفريقيا وبلاد الشرق الأوسط، ووضع على إثرها كتابه الشهير

(١) ترجم صبرى محمد حسن كتابات جون لويس بوركهارت إلى اللغة العربية، ومنها كتابه «ملاحظات عن البدو والوهابيين» فى جزأين، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧م. وكتابه الآخر «ترحال فى الجزيرة العربية» فى جزأين أيضا، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨م.

(٢) ترجم صبرى محمد حسن كتاب هارى سينت فيلبى تحت عنوان «الربُع الخالى»، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨م.

«حضـــارة العرب» عام (١٨٤٤م)، الذى عُرف به بين قـــراء العربية، بعد ترجمته على يد الراحـــل عـــادل زعيتر، ونلاحظ أن كتاباته عن تاريخ العـــرب وتقاليدهم وعاداتهم، كانت عن معايشة مباشرة بهم، ولم يعتمد فقط على المراجع الأوربية ذات الصبغة التعصبية، فى بعضها، إنما اعتمد فى الأساس على مصادر أصلية أو أوربية منصفة.

وقبـــل وضعه لكتابيه عن الهند «آثار الهند» و«حضارات الهند»، قام جوســـتاف لوبون بزيارة لتلك البلاد، وضمّن هذين الكتابين الصور الفوتوغرافية التى التقطها إبانها.

لأنه شغوف بدراسة الحضارات القديمة والحديثة، ودراسة ظاهرة الاحتكاك الحضارى وآثاره النفسية من خلال احتكاك الشعوب المستعمرة بحضارة غريبة عن حضارتهم فُرضت عليهم بالقوة، فقام لوبون بالبحث فى علم الأجناس، فوضع كتابه «الإنســـان والمجتمعات ومصدرهما وتاريخهما» فى عام (١٨٨١م)، والذى تتبع فيه تطور الإنسان منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، وكتابه الآخر «القوانين الســـيكولوجية لتطور الأمم» عام (١٨٩٤م)، والـــذى ترجمه أحمد فتحى زغلول بعنوان «ســـر تطور الأمـــم»، ويرى فيه أن هناك قوانين ثابتة تســـير المدنية فى كل أمة بمقتضاها، أهمها «نسيج روحها»، وأن ذلك هو الذى يميز أمة عن أخرى، وليســـت المؤسســـات. ويرى لوبون أيضا أن للمعتقدات الدينية تأثيرا مهما فى تطور المدنية.

ولم يكتف جوستاف لوبون بدراسة الحضارات العظمى (العربية – الهندية – اليهودية) خاصـــة، والمجتمعـــات الإنســـانية عامة، لكنه اهتم بعـــدة علوم أخرى، مثـــل علم النفس الاجتماعـــى، حيث صنف فيه مؤلفه «ســـيكولوجية الجماهير»، متحدثا عن مصطلح جديد «الجماهير السيكولوجية» حيث تتشكل روح جماعية ذات سمات محددة فى ظروف معينة بفعـــل العدد والعـــدوى الذهنية والإيحاء. وفى مجال التاريخ، له كتاب «فلســـفة التاريخ»، ويحـــاول من خلاله تغيير نظرتنـــا إلى الوقائع والأحداث وأصل الإنســـان، ويتضمن منهجا لتمثل حوادث الماضى والبحث عن عللها، ويساهم فى وضع فلسفة للطبيعة، ومن ثم للتاريخ تختلف عما ســـبقها اختلافا بينا. وفى مجال التربية، له كتاب «روح التربية» الذى ترجمه عميد الأدب العرب الدكتور طه حسين، ويرى فيه أن التعليم هو وسيلة إلى تكوين نفس الفرد وإلى تكويـــن المثل العليا للأمم، وقد تتغير النظم التعليميـــة بتغير البيئة وأطوار الجماعات، ولكـــن هـــذا التغير لا يمس هذه النظم إلا فى دقائقهـــا، فأما جوهر التعليم فواحد لا يتعدد، وإن أخذ صورا مختلفة وأعراضا متفاوتة. وفى علم الاجتماع، له كتاب «روح الاجتماع».

إذن نحن أمام عالم موسوعى، له بصمات علمية مهمة فى عدة علوم، اهتم بها الغرب، مثلما اهتم العرب، فاضطلعت شخصيات أدبية مهمة بنقل أفكاره من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، مثل الأديب طه حسين، والأستاذين أحمد فتحى زغلول (شقيق الزعيم الوطنى سعد زغلول)، والفلسطينى عادل زعيتر.

ولكن أهم الكتب التى عرف بها العرب جوستاف لوبون، هو كتابه الضخم «حضارة العرب»[1]، وهو الجامع لعناصر الحضارة العربية وتأثيرها فى العالم، مفصلا لعواملها، باحثا فى قيام الدولة العربية، وأسباب عظمتها وانحطاطها.

ويلخص لوبون فى مقدمة كتابه المنهج الذى اتبعه فى وضع هذا الكتاب، فيقول:

«من المبادئ العامة: الوجوب فى وقوع الحوادث التاريخية، والصلة الوثيقة بين الحوادث الحاضرة وحوادث الماضى.

من مواد التأليف: آثار الشعوب التى هى موضوع الدرس وتصويرها تصويرا صادقا، ووصف العرق جسما وعقلا، والبيئة التى نشأ فيها العرق، والعوامل التى خضع لها، وتحليل لعناصر الحضارة، أى للنظم والمعتقدات والعلوم والآداب والفنون والصناعات، وتاريخ لتكوين كل واحد من هذه العناصر، أى عرض صورة واضحة عن الحضارة العربية من خلال هذه المواد والمبادئ.

وتناول المستشرق جوستاف لوبون بدو العالم العربى فى كتابه، حيث قسم العرب – من خلال التقليد وطرق المعيشة – إلى أهل حضر وأهل بدو، فالبدو لهم تقاليد وعادات لا تزال عندهم منذ آلاف السنين، وهم مقسمون إلى قبائل ترتحل من مكان إلى آخر سعيا وراء الكلأ، أما أهل الحضر من العرب، فهم على العكس، يتغيرون بتغير الأماكن والشعوب التى يخالطونها. ويؤكد لوبون على ضرورة مراعاة هذا التقسيم الجوهرى حين البحث فى التاريخ العربى.

وينقسم البدو فى العالم العربى أيضا إلى قبائل صغيرة، تخضع كل واحدة منها لشيخ أو أمير، ويقتصر سلطان هذا الشيخ أو الأمير على قيادة المحاربين فى الغزوات وتقسيم الغنائم والصدارة فى بعض الحفلات.

أما عن عيوب البدو ومحاسنهم، فتنشأ عن طراز حياتهم، فهم يحبون الحرية حبا جما، وهم يكرهون أبناء المدن ويعدونهم من الأرقاء، وحافظ البدو على هذه الحرية بمرور السنوات، ولم يقدر الغزاة أن يستعبدوهم، بينما يقع القهر على البدوى من بدوى آخر.

---

(١) ينفرد نجيب العقيقى بوصفه لهذا الكتاب، بأنه لا قيمة له، برغم إشادة مئات العرب والغربيين به.

ومــن ناحية أخرى فالبــدو فُطِروا على الرغبة فى النهب وحب القتال، وأصبح بعضهم قُطــاع طرق، فألقوا الرعب فــى قلوب جيرانهم المتمدنين، ولكنهم فــى الوقت ذاته كانوا محاربين أشــداء فى العصور الإســلامية، وأصبح حبهم للنهب حُبــا للفتح. وامتازوا أيضا بالكرم، فالكرم أفضل فضائل البدو، أما التفاخر والمنافسة بينهم، فكان سببا فى خسرانهم بعد أن كان حافزا لهم إلى العمل الصالح فى البداية.

ويســتخف البدو بســلطان الحضارة، ويفضلون عليها حياة البادية، ويعقب لوبون على ذلــك، قائلا: «ولا تخلو حياة البادية من الســحر والجمال مــع ذلك، ولا أتردد ثانية فى ترجيحهــا علــى حياة المصانع التى يقضى العامل فيها اثنتى عشــرة ســاعة من كل يوم. وعنــدى أن أهــل البدو من العرب، مع بقائهم على الفطــرة، وعدم تحولهم قيد أنمُلة عن الحــال الابتدائيــة التى كانوا عليها منذ أقــدم العصور، أفضل من جميــع أمم الرعُاة فى العــالم»، وأن مبادئهم تُعادل «مبادئ كثير من الأوربيين العريقين فى الحضارة». ويرى أن البدوى لا تســتهويه ســوى ظواهر الأمور، وتبهره الضوضاء والبهرجة، ولم يُعان ما عاناه الرجــل المتمدن مــن التحول المتراكم بتوالى الأجيال. حيــث إن العرب (بدوا وحضرا) أقل تحــولا من الأوربيين بين قرن وقرن، ولكن تحول أهــل الأرياف والبدو كان ضئيلا، بينما تحول أهل الحضر أظهر من ذلك.

والبدوى نشــيط، لوجوب كسب عيشه بنفسه، وهو صبور، حيث يحتمل ما لا يحصى مــن الآلام والمحن، وهــم متماثلون فى أمور العز والشــرف لتماثل أحوالهم ومشــاعرهم، ويقوم فخرهم على الســيف والبلاغة، فبحد ســيفه يصون البدوى حقوقه، وببلاغته يحسم ما لا يقدر عليه السلاح من الخصام.

ولو تحدثنا عن حياة هؤلاء البدو وعاداتهم، فحياتهم بســيطة للغاية، فيمتطى البدوى فرســه وقــت الفجر، ولا يرجع إلى خيمتــه إلا وقت الغروب، ويتناول فــى النهار التمر وقليلا من الذرة، ويرعى فرســه بالكلأ الذى يجده فى طريقه، فإذا دخل خيمته عشــاء ناولته زوجته كوب لبن وقليل تمر وعســلا. والبدوى على خلاف الفلاح «الذليل»، فخور بحريته ذا خطوات ثابتة، ولا يُصاب بما يصاب به الفلاحون من الأمراض لقناعته وحياته المنظمــة، ولا يذهــب البدوى إلى المدن إلا ليبيع ما تنتجه مواشــيه وإبله، ولا يرغب فى المبيت فى المدن.

أما النساء البدويات، فيهتممن بحلب الشياه والبقر، وصنع الدقيق والخبز والطعام، وتربية الأطفال، وحياكة الثياب والخيام، وإذا عزمت القبيلة على الرحيل ركبت البدويات الهوادج اثنتين اثنتين.

وتقع خيمة الرئيس فى الوسط، وتليها خيام أبنائه المتزوجين، فخيام الأقرباء، فخيام الخدم، وتكون الأفراس أمام الخيام لتكون حاضرة عند أول إشارة، ثم تليها حظيرة الإبل والضأن والماعز. وتشتمل الخيام على متاع بسيط ملائم للحياة البدوية، مثل الأسلحة وأدوات الطعام.

ويتطرق جوستاف لوبون بعد ذلك إلى الحديث عن البدو فى سوريا، فيذكر أنهم يعتمدون فى معايشهم على النهب ومهاجمة القوافل والسياح الذين لا يدفعون لهم الإتاوة، ويهتمون بتربية المواشى، ومن أخلاقهم الشره، وإكرام الضيف. ولم يقدر أحد على إلزام هؤلاء البدو بترك البادية التى تعودوا الحياة فيها منذ قرون، ورفضوا كل أرض عُرضت عليهم ليستقروا بها، وامتنعوا عن أى عمل زراعى.

أما بدو مصر، فى عهد الاحتلال الإنجليزى، فكانوا أهل حرب وشراسة، وخاف منهم الإنجليز، ولكنهم اشتروا حيادهم بما يريده البدو. والبدو يعيشون فى الصحارى الرملية القريبة من ضفتى النيل، وقلما يخشون جانب الحكومة، ولا صلة بينهم وبين الفلاحين الذين يبغضونهم. وحياتهم كحياة بدو شبه الجزيرة العربية، «فالعربى البدوى هو أينما حل وحيثما اتجه».

ويجدر هنا إلقاء الضوء بصورة أوضح عن بدو سيناء فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى[1]، وهو الوقت ذاته الذى كتب فيه لوبون عن بدو مصر. كان يصعب على مجتمع بدو سيناء أن ينقاد لغير سلطة مشايخ القبائل، لهذا كانت محاولة بسط السلطة المركزية على هؤلاء البدو تلاقى صعوبات كبيرة، فالسلطة فى المفهوم القبلى هى فقط لشيخ القبيلة. وكان يتم تفسير محاولات الحكومة المصرية منذ بداية القرن (١٩م) لبسط نوع

(١) أفرد صبرى العدل بحثا كاملا عن بدو سيناء خلال القرن (١٩م) وعلاقاتهم بالسلطة، وهو ما لخصناه فى السطور التالية فى متن البحث. راجع «بدو سيناء والسلطة خلال القرن التاسع عشر»، فى كتاب «الرفض والاحتجاج فى المجتمع المصرى فى العصر العثمانى»، تحرير: ناصر إبراهيم، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية – كلية الآداب – جامعة القاهرة، ٢٠٠٤م.

من الهيمنة على هؤلاء البدو فى إطار الحد من ممارسة عاداتهم وتقاليدهم، ومن ثم سلب حريتهم فى التنقل، لأن الخضوع لسلطة مركزية كان يعنى الاستقرار فى إطار وحيز مكانى ليتمكن رجال الإدارة من فرض هذه السلطة.

وقد عملت الحكومة المصرية على تغيير خريطة توزيع القبائل فى سيناء وتوطينها فى مناطق بعضها خارج سيناء، أو الاحتفاظ بنخيلها الذى تأتى إليه وقت الحصاد لجمع الثمار ثم تعود إلى مناطق سكناها الجديدة.

وكانت هناك حركات رفض متعددة للبدو على السلطة الحاكمة، مثل:

١ – **الاحتجاج لدى الحكومة**، وذلك عن طريق الشكاوى بسبب فرض عوائد صحية على حيواناتهم عند دخولها الأراضى المصرية، واستغاث البدو أيضا من إغارات بدو الحدود الشامية، والمطالبة بحمايتهم منهم. ولكن هذا الاحتجاج كان ضعيف التأثير فى بعض الأحيان على الحكومة، لأننا نجدها تطبق القوانين التى يشكو منها هؤلاء البدو، ولكنها فى الوقت ذاته عملت على إزالة أسباب الشكوى إذا ما أحست بخطورة الموقف وتأثير القانون على الأمن فى سيناء.

٢ – **الهروب من مواجهة السلطات المحلية**، وكان يتم – فى الغالب – خلال فترات التعداد العام الذى ارتبط فى أذهان البدو بفرض ضرائب جديدة أو أنه محاولة لإخضاعهم للعسكرية.

٣ – **مقاومة رجال السلطة الحكومية باستخدام القوة والعنف**، ويتم هذا فى الغالب عندما يشعر البدو بضعف القبضة الحكومية عليهم أو حينما يتم تضييق الخناق عليهم عن طريق التعسف فى فرض القوانين واللوائح الحكومية للأجهزة الإدارية الموجودة فى سيناء كنقاط الحجر الصحى أو النقاط الجمركية.

٤ – **المشاركة فى الحركات المناهضة للسلطة.**

وهذه الوسائل الأربع كانت تتفق وطبيعة المجتمع البدوى بصفة عامة، فالفرار من وجه السلطة إلى الجبال يعكس حياة الترحال التى يهواها البدوى، واستخدام العنف لمناوئة السلطة يعكس الطبيعة البدوية للبدوى، الذى يقوم بحماية نفسه ولا يلجأ إلى غيره فى حمايته، وهذا يدل أيضا على شجاعته.

أما فى غربى إفريقية، فيذكر لوبون أن البدو متمردون على كل حضارة، كالبدو فى كل قطر، وهم أقل تمازجا وانحطاطا من حضريى العرب. ولكنهم يتفقون على مقت الأوربيين القاهرين لهم وحقدهم عليهم.

وإذا أردنا مقارنة انطباعات جوستاف لوبون وآرائه بآراء المؤرخين العرب، نجد أن ابن خلـدون هـو أهم من تناول البدو فى كتاباته، فيصفهم ابن خلدون بأنهم شـجعان، ولكنهم يعيشون على نهب أموال غيرهم من الناس سواء كانوا بدوا أو حضرا، وهم على خلق ولكنهم قطاع طرق، وهم أهل خير ومروءة. وهم أيضا سـفاحون يعشـقون الحرب وسفك الدماء. وهم أهـل فطرة يبغضـون الابتذال، ولكنهم ليسـوا أهل علم ولا فن، وهم أهل شـرف ويهبون أرواحهم لنجدة المرأة وحماية شرفها، ولكنهم يعيشون من كدها وعلى ما تقوم به من أعمال، وهم يحتقرون كل عمل يدوى، ويحتقرون ممارسـيه، ويسأمون الزراعة والفلاحين، ولكنهم من أجل أن يعيشوا ينهبون خيرات تلك الزراعة، وكان أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضـر لأن النفـس تميل إلى أقرب النفوس إليها، بينما أهل الحضر يميلون إلى الشـهوات الدنيوية فأصبحوا أشرار، ولهذا يسهل علاج أهل البدو عن علاج أهل الحضر.

ويرى ابن خلدون أن العصبية تلعب دورا حاسما فى العمران البدوى، حيث تقوم بمهمة القـوة الموحدة للجماعة البشـرية، أو بمعنى دقيق الانتماء، وأن طبيعـة البداوة تؤثر على خصائص العصبية ودورها فى الصراع من أجل البقاء وأسـلوب الحياة المتميزة بالفقر المدقع يطبع العصبية بسمات ملائمة لهذه الظروف وتتمثل فى التحفز والعنف، والعصبية حيوية فى حالتى الدفاع والهجوم، ولها دور فى تسـوية العلاقات الداخلية وكبح جماح الأشـرار الخارجين على الجماعة.

ولابد من الإشـارة إلى الفارق الزمنى (خمسـة قرون تقريبا) بـين المؤرخ وعالم الاجتماع الكبير ابن خلدون، وبين المستشرق جوستاف لوبون، والنظرة الاجتماعية التحليلية لهما، وخاصـة أنهمـا من علماء علم الاجتماع الكبار، بالإضافـة إلى التغيرات التى حدثت للبدو بمرور الأيام، واختلاف السلطات الحاكمة للبلاد.

وبعد هذا الاستعراض لصورة البدو عند جوستاف لوبون، يتبقى لنا عدة ملاحظات:

حديث جوستاف لوبون هو صورة للواقع البدوى فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، مـع وصف له عبر عدة قرون سـابقة لها، وقد لا تكون هـذه هى صورة البدو الآن، ولكننا نعتقد أنها صورة مشـابهة لهم لفترة طويلة لاحقة لكتاب لوبون، حيث ظل العالم العربى قابعا تحت نير الاحتلال (بجميع جنسياته)، وكان همه الأول التحرر من قبضة الاحتلال، وليس تغيير عاداتهم وتقاليدهم.

تمتاز كتابات لوبون بالتحليل العميق لعادات الأقوام موضع البحث والدراسة، وساعده فى هذا اهتمامه بدراسة الحضارات القديمة والحديثة، ودراسة ظاهرة الاحتكاك الحضارى وآثـاره، ونجد هـذا فى مقارناته بين العربـى البدوى والعربى الحضـرى، وبينهما وبين الأوربى، مما أثرى البحث وعمقه.

بالرغم من فرنسـية المستشـرق جوسـتاف لوبون، والمعروف أن العالم العربى اقتسـمه الإنجليز والفرنسـيين، فـإن كتابات لوبون اتصفت بالموضوعيـة، ولكن ظهرت رغبته فى معرفـة مـدى الفارق الحضارى بين الشـعب والمحتل، أى بين العرب (سـواءً كانوا بدوا أو أهـل المـدن) والأوربيين، ولم ينس معرفة آراء العـرب عامة فى الأوربيين، حيث يذكر أنهم عامة اتفقوا على مقت الأوربيين القاهرين لهم وحقدهم عليهم.

مطابقـة أغلب آراء جوسـتاف لوبون مع آراء ابن خلدون، ولكنه لم يقدم أى أسـباب للعادات والتقاليد البدوية، بينما تناول ابن خلدون البيئة البدوية تناولا سيكولوجيا.

قلة حديث لوبون عن المرأة البدوية، فهو لم يخصص فى كتابه عنها، إلا عدة أسـطر قليلة، دون أن يوضح دورها فى المجتمع البدوى، وفى تنشئة أبناء البدو.

لابد أن نتسـاءل هنا، هل قيمة العنف والنهب قصر على البدو فقط دون أهل الحضر، أم أنها عادات مشتركة، وإن كثرت قليلا فى البدو عن أهل الحضر، ولكننا لابد أن نؤكد أن ليس كل البدو بهذه العادات السيئة، وإلا لم يكن الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنـه) ليوصى أصحابه خيرا بالأعـراب، قائلا: «أوصيكم بالأعراب، فإنهم أهلكم ومادتكم وإخوانكم وعدو عدوكم وهم أصل العرب ومادة الإسلام».

تجدر الإشارة إلى أن لوبون لم يتناول العادات والتقاليد السيئة فقط، لإبراز البدو بصفة سيئة أمام الغربيين، ولكنه تناول أيضا الصفات الحسنة للبدو.

❑❑❑